

رحلة الى الشام

(١)

في يوم ٣١ يوليو سنة ١٩١٩ عبرنا قنال السويس عند القنطرة على جسر منصوب على التربة. والقنطرة طريق القوافل منذ القدم بين الشام وسائر الشرق الاذن وبين مصر. والمسافة بين العريش والقنطرة على الجمال خمسة ايام فقطعناها بسكة الحديد في بضع ساعات. وهكذا الطريق عينه هو الذي سار عليه اخوة يوسف الصديق عند هبوطهم مصر وسار عليه ايضا سيدنا المسيح يوم كان طفلاً وهرب به يوسف ومريم البتول الى مصر من وجه هيرودس

والشام ومصر توأمان لا يستغني الواحد منها عن الآخر ولقتهما واحدة وعاداتهما واحدة تقريباً. وقد كانت الصحراء بينهما حاجزاً يحول دون تمازجها وتواصلها برّاً لاجتات سكة الحديد مزيلة لذلك الحاجز مقربة للمسافة المترامية بينهما برّاً. وينبش التاريخ بان ملكاً واحداً حكم القطرين في ازمئة مختلفة

وقد تقع الانكليز في حروبهم شدة عنايتهم بالنقل والمواصلات فانها عندهم منظمة احسن تنظيم. ومن اعظم ما فعلوا في هذه الحرب في هذا الميدان جلب مياه النيل من افريقية الى اسيا محافظة على صحة جنودهم وراحتهم في هذه الصحراء المتقفرة. اما الاتراك فساقوا جنودهم فيها واهموا امر راحتهم وتوفير الطعام لهم فكانت العاقبة ما رأينا

بلغنا العريش في اليوم الثاني من رحلتنا فشهدنا تخيلها المشهور وكان يوم وصولنا اليها سوق الجمعة وأكثر ما يباع فيها الجمال التي يرسلها التجار الى مصر. وسكانها اشبه بسكان فلسطين منهم بالمصريين وهم يتاجرون مع عرب الصحراء ومع مصر والشام

ومن العريش سرنا الى رفح وهي آخر حدود مصر الآن كما هو معروف وكانت الحد الفاصل بين مصر وسورية من قديم الزمان. ففي اخبار فتح عمرو بن العاص لمصر سنة ١٤ هـ (٦٣٦ م) ذكر عمرو بن الخطاب ارسل اليه كتاباً وهو في الطريق ففضه عمرو وهو في العريش وتلاه على اصحابه وقد جاء فيه: اما بعد

فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع منها . وما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً من ارضها فاهض واعلم اني ممثلك . فالتت عمرو الى من حوالة وقال ابن نمن يا قوم . فقالوا في العريس . قال وهل هي من ارض مصر او الشام فقالوا من مصر

وبعد رفع بلخا خان يونس وفي جوارها اراض زراعية خصبة فيها باتين الصبيرة (التين يشوكه) واتين واخضر . وانظروا ان المطر قليل فيها . ويقول الصبيريون انها من بلاد فلسطين وقد اشترى بعضهم بقعاً في هذه الارض الرسلية وهي تصلح لزراع الشعير والبطيخ وغرس الاشجار

ومن خان يونس انتقلنا الى بلخ وغزة دشم . وسهول غزة واسعة يصح فيها زرع الشعير والكتان لان تربتها رملية ناعمة . وقد مرنا حول غزة بكروم التين والنب والزيتون . وكثير من منازلها مبني بالطين الاخضر وسكانها مسلمون ومسيحيون وهم متفقون كل الاتقان

والى الشمال والشرق من غزة سهول خصبة كسهول مصر لكن ينقصها ماء النيل وياما ينقصها . على انه يمكن حفر آبار لا يروا هذه السهول الواسعة . ولا تعلم تماماً نفقات الوقود لرفع المياه من هذه الآبار

وعند الظهيرة من انتظار الذي يتلنا في وادي جنين وفيه باتين البرتقال الشهيرة . ثم بلخنا مزرعة صهيونية اسمها شيبوت وفيها تكثر تحول اللوز الحلو . وبعدها وصلنا اللد وهي مكان اتصال مكتي الحديد ابي الداهية الى ياف وحيفا والداية الى القدس . وفي جوار اللد باتين من الزيتون قطع اشتركا اكثرها ايام الحرب واستعملوا حطبها وقوداً لسكة الحديد القريبة . وهذه المنطقة اجود اراضي فلسطين في اعتقادي ولكن ماها قليل اذ لا وجود للانهار فيها ومطرها نادر ولله اثنان في هذا الزمان مما كان في ايام الابه الارلين بدليل ان الحنطة التي كانت تزرع فيها في عهد ابراهيم واسحق ويعقوب كانت تكفي سكانها وكان السكان حينئذ اكثر من الان . والمرجح ان هذه الاراضي كانت مكسوة بالذباب فتضمت ايام الحروب الرومانية ولذلك باتت الاقطار اليوم نقل مما كانت قبلاً

والى الشرق من سهول اللد جبال يهودية المشهورة التي اشنع فيها المكابيون

في حروبهم مع الرومان . ولا يمكن ارواء هذه السهول الا اذا وجد الوقود اللازم لرفع المياه من الآبار بنفقة قليلة ولكن لا يعلم هل تزيد حاصلات هذه الارش كثيراً عن النفقة اللازمة لحفر هذه الآبار . وقد مررنا بتنازل عديدة للصهيونيين فاذا بالترك قد نزعوا سقوفها وسائر ما فيها من الخشب وتركوها خراباً . ولكن العمران اخذ يتجدد بعد الفتح الاخير والمزارع اخذت تزرع

وبعد مغادرتنا اللد بلغنا طول كرم التي اتخذها الترك معسكراً طاماً لهم وفيها انكسروا ثم تهنقروا تاركين ذخائرهم ولم يقاوموا بعد المعركة التي جرت فيها سوى مقاومة قليلة

ثم وصلنا الى زمارين وهي مستعمرة صهيونية بنيت بحال الباروت هرش تحيط بها اراض غاية في الخصب . وهي واقعة جنوبي جبل الكرمل المشهور بمواد ثدي الدينية القديمة . وينبت في هذا الجبل كثير من النباتات العطرية البرية . وقد استقر الرهبان الكرمليون المنقطعون في دير هذا الجبل نوعاً من العطر منذ القديم كان يسمى الكرمليت ويباع في جميع انحاء العالم . وفي جوار الجبل نحو نبات المحمودية وهو نبات يخرج منه عصير لبني سهل يجمعه الاهالي ويحفظونه اقراصاً ويرسلونه الى اوربا حيث يدخل في بعض المتحضرات الطبية . وفي اقراص الشكولاتا والبكويت المسهلة التي تعطى عادة مسهلاً للولاد شيء من هذا العنار . ويسميه الافرنج سكونيا

حدث في اواخر القرن الماضي ان لورنس الفتى الكاتب الانكليزي الشهير وزوجته أليس بنيا لها قصرأ على الجبل كتبها فيه كتبها المشهورة عند طارفي اللغة الانكليزية . وكان قصرها مضيئاً لكل من زار فلسطين من اهل اوربا واميركا . وتوفيت أليس الفتى في حيفا شهيدة المروءة اذ كانت تمرض فقيراً مصاباً بالحمى التيفويدية فاعدت وقبرها هناك معروف . وقبل الفراغ من الكلام عن حيفا لا نرى بأساً من الاشارة الى الكولونل الهندي الذي قتله الاراك في موقعة طول كرم . فمن كان يخطر على باء ان الهنود يأتون من اقاصي الهند ليسانعوا على اقتاذ الاراضي المقدسة من ايدي الترك

الدكتور

يوسف شبريل